آثار علمية دينية

﴿ امالى دينية — الدرس السادس عشر ﴾

م (٤٦) طول العمر : هذه المسئلة من فروع عقيدة القضآء والقدر والنظر فيها من حيث الاسباب واتصال المسببات بها لا اشكال فيه لانه مبنيٌ على الظواهر وللانسان عمر طبيعي هو مستعد لأن يبلغه اذا لم تعارضه اسباب اخرى تحول دون ذلك كالقتل والغرق وكالأمراض التى تفضى الى سرعة الانحلال وانطفآء سراج الحياة او ينقطع عنه مدد النموّ الذى تقوم به الحياة حتى تبلغ الأجل المستعدة لبلوغه فى اصل نظام الفطرة . ومثل الانسان في هذا سائر الاجسام الحية حتى النبات فان القطن مثلاً له اجل محدود فى الطبيعة ولكنه لا يبلغه اذا حالت دون ذلك الاسباب العارضة كأن يقلع بعد نباته بشهر او شهرين او يمنع عنه السقى الذى يغذيه ويمدّه حتى يبلغ اجله . فاذا عدا عادٍ على حرث قوم فاقتلع بعض هذا القطن يصح ان نقول انه لو لم يقلعه لبقى حياً الى ان يثمر كما يصح ان نقول ان ذلك الشاب لو لم يغرق لعاش مدة طويلة لأن بنيته مستعدة لذلك وكذلك لو لم يتعرض للمرض الفلانى الذى اصابه بالعدوى لكان جديراً بأن يطول عمره ويعيش عيشة راضية . كل هذا يصح ان يقال بالاعتبار الذى ذكرناه وهو ما ثبت عقلاً ووجوداً وشرعاً بالوجه العام المثبت لارتباط الاسباب بالمسببات .

ثم انهم يطلقون لفظ (الأجل) ولفظ (العمر) على المدة التى يعيشها

الانسان وغيره بالواقع ونفس الأمر لا على المدة التي هو مستعد لبلوغها عند انتفاء الموانع والأجل بهذا المعنى لا يعرف الا بالوقوع فمتى مات المرء يعلم ان هذه المدة التي قضاها هي اجله فى الواقع ونفس الامر ولما كان الله وحده هو الذي يعلم ما سيعرض على الاحياء من الفواجع الفجائية . والتهاون بالتدابير الصحية . فيقطع آجالهم الطبيعية الاستعدادية . أطلق الأجل على علم الله تعالى بالعمر وبهذا المعنى قالوا ان العمر لا يزيد ولا ينقص وهو صحيح اذ لو وقع فى الوجود خلاف ما يعلم الله تعالى انه سيقع لكان العلم جهلاً وقد فرضناه علماً وبرهنا عليه

الدين دين الفطرة والشريعة حنيفية سمحة ليلها كنهارها لا شبهة فيها ولا حيرة ولكن انتشار الجهالة فى المسلمين بعد السلف قذفهم فى تيهور الحيرة وطوّح بهم فى مهاوى المشكلات . واعظم بلاء حل بهم من قبل دينهم عدم فهم القضاء والقدر على وجهه المعقول الذى شرحناه حيث خرجوا به الى الجبر وانكار اثر الاسباب فى المسببات حتى صار من يطلب الشيء من سببه ويرى انه يوجد بوجوده وينتفي بانتفائه يعدّ من فاسدي الاعتقاد كأن الانسان عندهم لا يكون مسلماً صحيح الاعتقاد حتى يمتلخ عقله وينتزع وجدانه ويكابر حسه وينكر الوجود نفسه وكأن المسلم خلق لأن يجهل كل شيء ويترك كل سعي وكسب ويبسط يديه الى القضاء والقدر لتفيض عليه الارزاق والبركات والخيرات بابطال نظام الكون وتبديل سنن الخليقة ونواميس الطبيعة التى لا تتبدل ولا تتحول . اذا قال الطبيب : ان مداراة الصحة على الوجه الفلانى سبب فى طول العمر او يطيل العمر يقول الجاهلون قد كفر . واذا صدقه المؤرخ الاحصائى

فذكر عدة بلاد وممالك قلّت فيها الوفيات منذ انتشرت فيها المعارف الطبية وصار تعليم فن حفظ الصحة (الهيجين) عاماً فى ذكرانها واناثها يقولون قد كذب واختلق . أفلا يرون كيف يفتك الطاعون فى الهند كما كان يفتك باوربا في العصور الغابرة وكذلك الهيضة المعروفة بالهواء الاصفر سالمت الغرب ولم تزل عدوة فتاكة فى الشرق . اذا اوردت مثل هذا يعترضك المتحذلقون الشاكون المشككون بذكر شواذ لا يعرفون ان لشذوذها اسباباً وقف عليها الطبيب ونحوه واذا لم يقف على بعضها يتلمسه حتى يجده كما وقع للاطباء وغيرهم من علماء الكون فى مسائل لا تحصى

اذا قال الطبيب ان كذا يطيل فى العمر او يقصر فهو لا يعنى بالعمر ما قدر الله فى سابق علمه لان وظيفته ليس من موضوعها انكشاف المعلومات لله تعالى او عدم انكشافها — على فرض جواز ذلك — وانما موضوعه بدن الانسان من حيث يمرض ويصح وما يكون من اثر ذلك فى طول البقاء وعدمه واستمداده من التجارب التي تنكشف بها سنن الله فى الخلق وتعرف بها الاسباب التى اناط الله تعالى بها الحوادث وجوداً وعدماً فهو بهذا اعلم منهم بقضاء الله وقدره ولوقوفه على سننه فى هذا التقدير

كيف ينكر مسلم ان شيئاً من الاشياء . يكون سبباً فى بسطة الاجل وطول البقاء . وهو امر ثابت فى الفطرة ودينه دين الفطرة وثابت فى العقل ودينه مبنيّ على العقل وثابت بالنقل ايضاً . روى البخارى ومسلم من حديث انس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من احب ان يبسط له فى رزقه وينسأ له فى اثره (اي يؤخر له فى اجله) فليصل رحمه » وروى ابن ماجه من حديث ثوبان رضى الله عنه قال قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يرد القدر الا الدعاء ولا يزيد في العمر الا البر وان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » والاحاديث في هذا المعنى كثيرة والبحث في زيادة الرزق كالبحث في طول العمر سواء لان لكل منهما اسباباً وعلماء الكون انما يتكلمون باعتبار الاسباب واما بالنسبة لما في علم الله تعالى فليس من موضوعهم ولا غيرهم لان ما في علم الله انما يعرفه الناس بوقوعه الا ماله سنن مطردة لا تنازعها سنن اخرى كسير الكواكب فاننا نعلم ان الشمس تقرب بعد كذا ساعة وتكسف في يوم كذا ومتى يبتدىء الكسوف ومتى ينتهي . ولما تصدى المسلمون لادخال الدين في كل بحث وخلطوا الكلام في الاسباب الظاهرة بالكلام في العقائد جعلوا لهذه المسئلة مخرجاً سموه (القضاء المعلق) يعنون ان المسببات معلقة في علم الله تعالى باسبابها فاذا وقعت الاسباب وقعت معها المسببات لا محالة والا فلا وهو قول صحيح ولا فرق فيه بين السبب الذي علم بالاختبار والوجود والسبب الذي علم بالشرع بل الاول اقوى لان الثاني يحتمل التأويل فيما اذا لم يكن نصاً قطعياً والله اعلم